

العلاقة بين اللغة العربية وشقيقاتها اللغات الافريقية

وأثرها في تنمية الثقافة العالمية(*)

بقلم : الدكتور علي القاسمي

المنظمة الاسلامية للتربية

والعلوم والثقافة - الرباط

وتلعب اللغة دورا رئيسيا في عملية التبادل الثقافي والعلمي بين المجتمعات المختلفة . ولهذا كله فقد اولت الدول المعاصرة تخطيط السياسة اللغوية اهتماما بالغاً وعناية خاصة فشجعت البحوث المتعلقة بها ، وظهر نتيجة لهذا الاهتمام وتلك العناية علم جديد مشترك بين علوم الاجتماع والسياسة واللغة اطلق عليه اسم « علم اللغة الاجتماعي » ، موضوعه التنوع اللغوي ، وهدفه تخطيط السياسة اللغوية بصورة موضوعية وطريقة علمية ، ووسيلته البحث اللساني الميداني المقارن .

وإذا كان لي ان احور عنوان الملتقى قليلا فانني افضل عبارة « العلاقات بين اللغة العربية وشقيقاتها

تنبع اهمية هذا الملتقى الكريم من كونه يتناول بالبحث والتحليل عاملا أساسيا من عوامل التنمية الحضارية بكل جوانبها الروحية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية الا وهو العامل اللغوي . فاللغة ليست اداة اتصال وتوثيق نعبر بواسطتها عن المفاهيم والانكار والقيم ونحفظ بها التراث الثقافي والعلمي فحسب ، وانما هي كذلك عنصر جوهري من العناصر المكونة للثقافة والفكر تتجاوز اهميتها التعبير الى التغيير ، بحيث تؤثر القوالب اللغوية في البنيات الفكرية ، والانظمة المفهومية ، والانماط السلوكية للجماعة الناطقة بها : ويعتمد للتطور الاجتماعي الاقتصادي للجماعة على مدى قدرة افرادها على استعمال الوسيلة اللغوية استعمالا فاعلا مؤثرا .

* القيت في الملتقى العلمي حول « العلاقات بين اللغة العربية واللغات الافريقية الذي اقامته المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم بالتعاون مع المعهد الثقافي الافريقي بداركار ، ابريل 1984 .

وإذا كانت العربية قد منحت شقيقاتها اللغات الأفريقية كثيرا من المفردات الحضارية والمصطلحات التقنية ، فإن للغات الأفريقية فضلا على العربية لا يمكن تجاهل أهميته أو نسيان خطره . فقد كانت اللغات الأفريقية وما تزال أدوات اتصال لنشر الإسلام في ربوع القارة الأفريقية ، فكانت بنشرها للإسلام تنشر معه اللغة العربية لغة القرآن الكريم . أضف الى أن علماء أفريقيا قد أثروا اللغة العربية بما ألفوه فيها من أبحاث ودراسات قيمة في شتى مجالات المعرفة .

ويعتمد نمو العلاقات بين اللغات الأفريقية على ازدهار العلاقات بين شعوبها ، كما أن الأخير متوقف على الأول كذلك . ولكي يضع الباحث الوسائل الكفيلة بتنمية العلاقات بين اللغة العربية وبقية شقيقاتها اللغات الأفريقية لا بد أن يبحث في الوضع اللغوي في القارة الأفريقية .

فاذا ألقينا نظرة فاحصة سريعة على الخريطة اللغوية للقارة الأفريقية نقف على الظواهر والحقائق التالية :

1 - أن أكثر البلاد الأفريقية - باستثناء معظم الدول العربية - تشتمل بصورة عامة على ظاهرة تعدد اللغات الوطنية .

2 - على الرغم من أن اللغات الأفريقية غنية بثقافتها وآدابها فإن كثيرا من هذه اللغات لم يدون لحد الآن ، وأن بعض ما دون منها لا يتوفر على مكتبة متكاملة في العلوم والآداب والفنون .

3 - وبسبب الظاهرتين السالفتي الذكر ولعوامل أخرى ، فإن كثيرا من الدول الأفريقية - العربية منها وغير العربية - ما تزال تستخدم لغات الاستعمار القديم

اللغات الأفريقية ، لأن تعبير اللغات الأفريقية ، هو مصطلح جغرافي وليس مصطلحا لسانيا . وفي ضوء هذا الإيضاح نلني أن اللغة العربية لغة أفريقية ، فهي لغة أم بالنسبة لأكثر من مئة وعشرين مليوناً من الأفرقة في مصر والسودان والصومال وأثيوبيا وتشاد وليبيا تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا وغيرها من البلاد كما أنها اللغة الدينية بالنسبة لملايين غيرهم من الأفرقة المسلمين يتلون بها القرآن ، ويقدمون بها الصلاة ويمارسون بها المناسك .

والعلاقات بين اللغة العربية وشقيقاتها بقية اللغات الأفريقية متنوعة متشعبة متشابكة كتشعب الروابط بين الشعوب الأفريقية وتشعبها وتشابكها . وهي علاقات تتطور في الضواحي التاريخية واللسانية والثقافية والاقتصادية والسياسية . فقد أسهمت اللغة العربية بتزاوجها مع بعض اللغات الأفريقية في انجاب لغات أفريقية جديدة وتنميتها كما هو الحال في ظهور اللغة السواحيلية واللغة الصومالية في شرق أفريقيا ولغة اليوروبا في غرب أفريقيا ، بحسب إحدى النظريات اللسانية . ومن الناحية الثقافية ، أدى انتشار الدين الإسلامي في المجتمعات الأفريقية إلى تبادل التأثير بين العربية ولغات تلك المجتمعات على جميع المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، واستخدم الحرف العربي في تدوين كثير من هذه اللغات الأفريقية ، ولقرون عديدة قامت اللغة العربية بدور لغة التبادل التجاري في أفريقيا . واللغة العربية هي اللغة الأفريقية الوحيدة التي تستخدم لغة عمل في مؤسسات عالمية وإقليمية ووكالاتها المتخصصة تتمتع الدول الأفريقية بعضويتها كمنظمة الأمم المتحدة ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، ومؤتمرات عدم الانحياز .

– كالانجليزية والفرنسية – في الادارة أو التعليم أو كليهما بدرجات متفاوتة ، وكذلك في الاتصالات الخارجية .

4 – لقد سعت القوى الاستعمارية الى دفع اللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي الى التخلي عنه واستعمال الحرف اللاتيني بدلا منه ، وذلك لقطع شعوبها عن تراثها المدون بالحرف العربي ، وعزلها عن بقية الشعوب الافريقية التي تستخدم لغاتها الحرف العربي ، والحيلولة بينها وبين تلاوة القرآن الكريم ، وتيسير ربطها بالقوى الغربية ثقافة وسياسة واقتصادا . وقد نجحت هذه القوى الاستعمارية في مساعها هذا في حالات كثيرة .

5 – ان تعليم اللغة الثانية أو اللغة الاجنبية في المدارس الابتدائية والثانوية في كثير من الدول الافريقية يقتصر على لغات الاستعمار القديم كالانجليزية والفرنسية والاسبانية وبعض اللغات الاوروبية الاخرى . ففي الاقطار العربية الافريقية مثلا لا توجد مدرسة ثانوية تتيح لطلابها فرصة تعلم لغة من اللغات الافريقية كالولوف أو الهوسا أو السواحيلي أو الصومالي . فاذا أضفنا الى هذه الظاهرة ندرة المعلمات عن الاقطار الافريقية في المنهج المدرسي لهذه الاقطار نقف على أسباب جهل المواطن العربي الافريقي ببقية بلاد القارة الافريقية وثقافتها .

6 – باستثناء أقسام الدراسات العربية الاسلامية ، وباستثناء العدد القليل من أقسام الدراسات الافريقية ، تتسم الجامعات الافريقية عموما والجامعات العربية منها خصوصا بافتقارها الى أقسام متخصصة في الشؤون الافريقية الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية التي ينبغي أن تكون فيها اللغات الافريقية حجر الزاوية ، وينتج عن هذا عدم تخريج هذه الجامعات للمعد الكافي من المتخصصين في الشؤون الافريقية ، الذين يسهمون بما يبحثون ويكتبون ويترجمون في تمكين الروابط بين البلاد الافريقية وتعريف شعوبها بعضها ببعض .

وإذا أدركنا أن للوضع اللغوي انعكاساته على التنمية الاجتماعية والاقتصادية الوطنية من جهة ، وعلى العلاقات بين البلاد الافريقية من جهة ثانية ، فإنه يتوجب علينا توجيه فائق العناية الى التخطيط اللغوي ، وهنا تطرح المؤشرات الرئيسية التالية نفسها على بساط البحث .

1 – تنمية اللغات الافريقية الوطنية واحلالها محل اللغات الاجنبية في الادارة والتعليم والتجارة .

2 – تعليم اللغات الافريقية في مدارس الدول العربية وجامعاتها ، بحيث لا تفرض على الطالب العربي في المدرسة الثانوية لغة أوروبية أو لغتان أوربيتان ، وإنما يعطي الفرصة لاختيار لغة افريقية واحدة على الأقل .

3 – تعميم أقسام الدراسات الافريقية – بما فيها اللغات الافريقية – في كل الجامعات العربية ، وتعميم أقسام الدراسات العربية الاسلامية في جامعات البلاد الافريقية غير العربية باعتبار أن الاسلام قد أسهم برافد متميز في إثراء ثقافات الشعوب الافريقية ، وتنميتها روحيا واجتماعيا وعلميا .

4 – تشجيع تعليم لغة افريقية عالمية واحدة في جميع الاقطار الافريقية وفي كل مراحل التعليم ، لتكون

تواصل مع الشعوب الافريقية الاخرى ، ويفتح امامه آفاق الثقافة العربية الاسلامية الشاسعة ، ويزيده فهما وادراكا للغاته الوطنية التي تربطها مع العربية وشائج تائيلية متينة .

وختاما اسمحوا لي ايها السادة ان اكرر لكم شكري باسم المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة على توجيهكم الدعوة الكريمة للمشاركة في هذا الملتقى الموقر ، الذي سيزخر - ولا شك - بالبحث القيم والنظر الصائب والحل الناجح .

لغة تفاهم مشتركة بين الشعوب الافريقية ، ووسيلة اتصال بينها وبين الشعوب الاخرى ، ولا حاجة الى القول بان اللغة الافريقية التي توفرت لها مقومات تأدية هذه الرسالة هي لغة القرآن الكريم التي انتشرت بانتشار الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ، وأسهمت وما زالت تسهم بجدارة في تطور الفكر الانساني ، واصبحت لغة عمل في المنظمات العالمية والمحافل الدولية ، ان تعميم العربية في المدارس الافريقية يزود الطالب الافريقي بأداة اتصال عالمية ، ووسيلة